من وحي كربلاء .. قراءة في خطاب الدكتور إبراهيم الجعفري

*** الحسين (عليه السلام) أراد أن يشيّد صرح الإصلاح.. أراد أن يبني دولة بقيمه، ومبادئه، وصرع مبادئ الظلم وقيمه، وهدّها على عروشها؛ فعلينا أن نعيش اليوم بناء دولة مبادئ الحسين.. ويجب أن نحقق الإصلاح...**

*** عاشوراء الحسين لم تكن حكراً لمذهب دون آخر، و لم تتحدث باسم طائفة دون أخرى... عاشوراء الحسين كانت الفيصل بالنسبة لشبهة الباطل بالحق؛ فأماطت اللثام عن الإسلام المزيّف، ولم يكن في خطابها سوى (لا إله إلا الله محمد رسول الله)...**

*** كربلاء عنوان الرشاد الإنساني الثائر على الظلم والهوان والذلة، وهي ثقافة الإصلاح الجذري... ورسالة السلام الإنساني للحفاظ على قيمة الإنسان الكبرى (الحرية)، وروحه (الكرامة)**

*** اليوم وبفضل تضحية الإمام الحسين (عليه السلام) أصبح صوت الإسلام مرفوعاً في كل أرجاء الدنيا... الإمام الحسين عطاء متدفق يريد لنا أن نبني هذا المجتمع... يريد لنا أن نقيم دعائم دولة.. نحن نعيش عصر انتصاره اليوم، ويجب أن نضع هذه القضية في حساباتنا...**

من خطاب الدكتور الجعفري الذي
وجّهه للشعب العراقي خلال زيارته لمدينة
كربلاء المقدسة

المقدمة

ترث الشعوب ملامح ثقافية محددة ومعها معايير وقيم يتسلط تأثيرها في توجيه السلوك وترتيب العلاقات وأوضاع الحضارة وحماية المستقبل وإدراك مدى الترابط بين الحدث الآني وأبعاده المستقبلية، ومن أبرز ما ورثناه هو الثورة الحسينية بالآفاق التي انطلقت فيها في مدى الزمن، وفي الروح التي انبعثت منها في مدى الإنسان، وفي الفكر الذي انطلق منها في مدى الإبداع..

الثورة الحسينية فرضت نفسها على العقل والقلب والحركة والحياة لأنها في كل خطوطها ومفاهيمها وحركيتها وانفتاحها على الإنسان كانت ذات قابلية على التجدد الذاتي عبر الأزمان المتمادية.
لقد برزت في النهضة المباركة كل الأخلاق والقيم والمبادئ الإنسانية التي تغذي روح الإنسان، حتى بات أمرها قدراً أزلياً تتوارثه الأجيال منذ استشهاده في تلك الفترة من التاريخ، ونزلت إلى عمق الوعي الإنساني للذات بضرورة الانتفاض على التدهور الاخلاقي والاجتماعي لتستهدف خلق وعي أممي متصاعد باتجاه رفض الانحراف بأشكاله كلها وتكون فيصل الحق والباطل .
ولعظم الدروس التي سطرتها هذه الملحمة والتي هيهات أن تتغير أو أن تمس بسوء؛ لأنها ملحمة تغيّر الشر الذي خلق مع بدء الخليقة، وتدحض الباطل بكل ألوانه، وآفاته، وترسم طريقاً لدولة الحق والعدل التي سنها وأرسى قواعدها الخالق في رسالته السماوية التي أنزلها على رسوله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).
فارتأت مؤسسة الكتاب الثقافية الولوج في هذا الخضم الهائل للنهضة الحسينية عسى أن تقدم شيئاً لهذه النهضة المباركة الخالدة، وهي عبارة عن قراءات في بعض خطابات الدكتور الجعفري التي ألقاها خلال لقاءاته المتنوعة وفي مناسبات شتى..
ومن الله التوفيق ومنه السداد والرشاد

النهضة الحسينية.. صفة الخلود

لعل النهضة الحسينية كانت في انطلاقتها باتجاه إعلان الرفض المطلق لنظام دكتاتوري فاشي ارتدى ثوب الثيوقراطية، فشوّه صورة القيم الإلهية، والمنظومة التشريعية الإسلامية التي شاء الله من خلالها قيام حياة حرة كريمة، تسود فيها العدالة الإلهية في الأرض (القسط)، وتتكافأ فيها الفرص، لبني الإنسان، وتستبعد فيها حالة استعباد الإنسان للإنسان، وليسود فيها الشرع، والقانون الإلهي فحسب، ويتحوّل الحكم فيها إلى عقد اجتماعي بين الأمة والحاكم؛ لكي يحقق مصالح الناس وفق الشريعة الربانية الهادية ... إلا أنها في جوهرها نهضة حضارية شاملة؛ لأنها تتمحور حول خلاص الإنسان وتحقيق كرامته، وإعادة حقوقه المغتصبة، وتوفير حريته الممتهنة
وهكذا شاء الحسين (عليه السلام) أن يحقق ذلك من خلال حركته المباركة، إلاّ أنه أراد أن تتحقق أهداف هذه النهضة الكريمة من خلال الإنسان نفسه وقناعته، ورضاه من دون فرض، أو إكراه، كما تبين ذلك من خلال رسائله، وحواره مع الناس، وتجاوبه مع دعوة جماهير الكوفة له، وإرساله القائد سفيره مسلم بن عقيل (عليه السلام) لدراسة الموقف من كثب ...

وإذا أردنا أن نلج بوضوح وشفافية إلى عالم العلة والسببية في النهضة الحسينية ومعرفة أسباب الخلود... فقد حدّد الدكتور الجعفري بعض المعالم منها بنظرته التحليلية، قائلاً:

وهكذا كان تجديد هوية المسلمين، وإحياء قيمها، ومفاهيمها في وعي الناس وعقولهم، أهم ما أكسب الحركة المباركة امتداداً زمانياً واتساعاً مكانياً حتى يرث الله الأرض ومن عليها في هذه الحركة التي باشر قيادتها ... وهلّم نستمع إليه، وهو يتحدث عن هذه القضية، ويرسخ أقدامها في حياة الناس، ويصارح الناس بانهيار الهوية الثقافية للمسلمين، وإن هذه المأساة تتطلب التضحية، والفداء: (أمّا بعد، فقد نزل بنا من الأمر ما قد ترون وإنّ الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها ولم يبقَ منها إلاّ صبابة كصبابة الأناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله! فإنّي لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برما).
وكان إصلاح المنهج السياسي من مرتكزات النهضة الشريفة وأولياتها لإعادة القيم الإسلامية الخاصة بالحاكم إلى دنيا المسلمين التي تؤكد أن الحاكم في الإسلام أمين الأمة، ووكيل عنها في إجراء الدستور، وإقامة العدل بين الناس، وهو الذي يحفظ هوية الأمة التي رضيت به حكماً، فلا يخالف مصالح الجماهير، وليس للحاكم حقوق إضافية، في مال، أو جاه، أو مكانة على حساب المواطنين، وفوق حقوقهم المفترضة، مادية كانت أو معنوية ..

كما اكتسبت النهضة الحسينية المباركة صفة الخلود من خلال المسؤولية الجماعيّة والانتماء إلى الكيان المجتمعي والتشارك في الهموم والتطلعات وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. لقد أراد الإمام الحسين أن يكون خروجه إنسانياً – نهضوياً، وبعيداً عن ألوان المواجهات الحادة، والصّراعات الدنيوية، فلم يشأ أن يدخل في معارك جانبيّة مع أولئك الذين يردّون عليه نهضته، ويخالفونه فيها وفي منطلقاتها، وشدّد على أن يكون الخيار في هذه الحال عدم اللجوء إلى مناوشات موتورة أو مجادلات عقيمة تنتهي بما لا تحمد عقباه على مستوى السلم المجتمعي وحرْف مسير النهضة.
ومما كان أثبت لها تلك الصفة وجعلها صنواً وجودياً ماثلاً وواضحاً لكل من يرنو التغيير والخلاص من الظلم الاجتماعي والسياسي اللذين طالا شريحة واسعة من المجتمع الإنساني هو أن النهضة الحسينية تجاوزت التحديدات الآيديولوجية، وغدت فهماً إنسانياً عالمياً ينظر إلى ضرورة النزوع إلى رفض الظلم والانحراف عبر أستراتيجية الإصلاح التي تقوم على نفي الفساد والذاتية.

وفي هذا الصدد قال الجعفري:

شكلت الثورة الحسينية أروع قيم التغيير الذي مايزال يسري مفعوله على مر الأزمان وفي مختلف الأمكنة، وها هو غاندي أحد كبار قادة التغيير في العالم يقول: (على الهند إذا أرادت أن تنتصر أن تقتدي بالإمام الحسين)، (علمني الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر) أي بنهج الإمام الحسين (عليه السلام) في التغيير.

ليس كل ثورة اكتسبت صفة العالمية وكانت نبراس الأحرار في حركتهم نحو العدل ومقارعة الظلم فالكثير من الثورات أصبحت في طي النسيان، ولم يبقَ لها سوى صفحات من التاريخ تقرأ على أنها من أحداث الزمن الغابر، فيما بقي من الجانب الآخر واكتسبت الخلود وصارت منهجاً ومنهاجاً لمن يرنو العدل والحق؛ لأن النفس السوية ترفض الظلم وتكره الطغاة وتسعى إلى العدالة بين الناس بغضّ النظر عن معتقداتهم ومذاهبهم وهذا الراهب النصراني (ميلانصو) يرى النور يشع من رأس الحسين المحمول في طريقه إلى قصر يزيد في دمشق، فيأخذ الرأس من حامليه ليمسح عنه التراب ويغسله بماء الورد معاتباً ومؤنباً القتلة على فعلتهم، لأن النفس الإنسانية فطرت على بغض الظلم ونبذ الطغيان.

لقد سطّر التاريخ ملاحم شتّى بدأً من نشوء الخليقة وحتى يومنا هذا وعلى مرّ العصور واختلاف الملل والأديان، ولكنّ العاقل من ينتقي ما يخلده ويجعل عاقبته الخير والصلاح وحسن المقام، ومن أروع الملاحم وأصدقها ملحمة الطفّ..

تحدث الجعفري عن صفة الخلود التي اكتسبتها النهضة المباركة قائلاً:

توالت الثورات بعد الثورة الحسينية منادية بالحق، والعدل، ومواجهة الطواغيت، ولولا هذه الملحمة العظيمة لما بقي الإسلام كما نزل على النبي (صلى الله عله وآله)، ولما حفظت تعاليمه.

الجانب الإنساني في الثورة الشريفة كان واضحاً جداً والنفس السوية ترفض الظلم وتكره الطغاة، وتسعى إلى العدالة بين الناس بغضّ النظر عن معتقداتهم ومذاهبهم...

إنّ الطاقة التي تصدرها الثورة الحسينية تقتحم حدود زمانها ومكانها إلى زمان ومكان آخر وأفسح تؤثّر عليهما، وتغيِّر من مسار ومفاهيم شعوب ذلك الزمان وذلك المكان؛ كون عاشوراء نهضة وثورة إصلاحية وليست انقلابية..

أنّ عاشوراء وإن كانت نهضة من أجل الدفاع عن قيم الدين وثوابته، لكنّ الإمام الحسين (عليه السلام) كشف في خطابه العاشورائي، بأنّ ما نحن مقدمون عليه إنّما هو نابع ومتناغم أيضاً مع صميم الفطرة الإنسانية، الداعية إلى رفض كافة أنواع الاستبداد السياسي ، فخاطب (عليه السلام) الأعداء قائلاً: (إن لم يكن لكم دين ولا تخشون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم).

ومن أروع الملاحم وأصدقها ملحمة الطفّ، التي كان لها من المعاني والعبر والدروس التي أرهبت وهزت عروش الظلم والتسلط والعبودية على مدى القرون الماضية، وقد حاول الأباطرة بتيجانهم وأقلامهم وأفكارهم أن يغيروا من عبرها، لكن عظم الدروس التي سطرتها هذه الملحمة هيهات أن تتغير أو أن تمس بسوء؛ لأن العدل والخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يمكن أن تبدل أو يدنّس، ويا لعظم هذه الملحمة. ليس لأنها سطرت بيد أحد أولياء الله وخيرة عباده، بل لأنها ملحمة تغّير الشر الذي خلق مع بدء الخليقة، وتدحض الباطل بكل ألوانه، وآفاته، وترسم طريقاً لدولة الحق والعدل التي سنّها وأرسى قواعدها الخالق في رسالته السماوية التي أنزلها على رسوله وحبيبه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)...

خلد التاريخ كربلاء.. وحفظت البشرية اسم عاشوراء.. عندما جسد الحسين (عليه السلام) معنى الإباء.. فغدا رمزاً يعشقه من ينشد الوفاء.. فأصبح كل يوم عاشوراء، وكل أرض كربلاء، وستبقى تختزن في طياتها الكثير من المعاني التي لا يكاد يحصيها أحد..

الاستقطاب التاريخي في النهضة الحسينية

زار الصين يوماً أحد قادة منظمة التحرير الفلسطينية، والتقى الزعيم (ماوتسي تونغ)؛ فقال الأول لماو: علـّمني النضال، فقال ماو: كيف أعلـّمك، وعندكم ثورة الحسين بن علي، ومعركة كربلاء؟**!**

ويقول غاندي: (لقد طالعتُ بدقة حياة الإمام الحسين، شهيد الإسلام الكبير، ودقَّقتُ النظر في صفحات كربلاء، واتضّح لي أنّ الهند إذا أرادت إحراز النصر، فلا بد لها من اقتفاء سيرة الحسين).

لقد أسست الثورة المباركة لتيار المعارضة الذي ظل في وضع مواجهة دائمة مع السلطات الجائرة، وصارت ميراثاً ثقافياً محدداً ومعها معايير وقيم يتسلط تأثيرها على توجيه السلوك وعلى أساس كل ذلك تترتب العلاقات وأوضاع الحضارة.

فلم تكن دائرة الطموح الحسيني تتسع لفئة أو ملّة دون أخرى لأن الأمة أصبحت على مفترق طرق وأمام ظاهرة توقف آيديولوجية يلقي إفرازاته في الواقع المعاصر وكأنه ينتمي إلى اللحظة الحاضرة، بل أن الأمة تنسى الكثير من الصراعات التي مرت لكنها لا تستطيع نسيان هذا الصراع.

ويقول الدكتور الجعفري:

إن الثورة الحسينية انطلقت بعد أن دخلت الأمة في نفق التوقف والعجز عن مواصلة التقدم لأن التحولات التي حدثت في الحكم كانت تشير إلى أن

الأمة تسير تراجعياً فيما الإسلام حالة تقدمية يهتم بالمستقبل وينظر إليه ؛ فثورة الحسين ثورة نظرت إلى المستقبل لأنها وجهت المخزون الثقافي الصحيح المتوائم والفطرة الإنسانية باتجاه رفض جميع أنواع الانحراف.. النهضة الحسينية خلقت انسجاماً اجتماعياً في منظومة القيم الأصيلة التي عطلت كل حالات التبرير لقبول تسلط الظلم والاستبداد..

استراتيجية الهدف الحسيني

يقول الإمام الحسين (عليه السلام): (إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي رسول الله).

يُعَد الإصلاح من أبرز بواعث نهضة الإمام الحسين (عليه السلام)، بل هو العلة الغائية لقيامها.. وتمتد حدود هذا المفهوم (الإصلاح) الذي أرّق المستكبرين، وقضّ مضاجعهم لتأخذ الإطلاق نفسه في اتساع مداراته لتشمل البلاد والعباد..

وورد خطاب الإصلاح في سياق الوصيّة التي كتبها الإمام الحسين لأخيه محمّد بن الحنفية، وكان ذلك في يومه الأخير في المدينة المنوّرة، وهو على وشك تحريك الرّكب الحسيني باتجاه مكة المكرمة فكربلاء...

فإصلاح العباد يتجلى بأبرز صوره في وصيته التي لأخيه محمد بن الحنفية: **(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحسين بن علي بن أبي طالب إلى أخيه محمد المعروف بابن الحنفية أن الحسين بن علي يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً صلى الله عليه وإله عبده ورسوله، جاء بالحق من عند الحق. وأن الجنة والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور............ أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وسيرة أبي علي بن أبي طالب عليه السلام. فمن قبلني بقبول الحق، فالله أولى بالحق، ومن ردّ عليّ أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق، وهو خير الحاكمين.....**

لم يكن الإمام الحسين (عليه السلام) وهو يكتب هذه الوصية ناظراً إلى اللحظة التاريخية الضيقة التي كان يزامنها، وهو ما يُفسِّر انفتاح نصّ الوصية على الأبعاد العميقة التي يختزنها التحرّك الحسيني على امتداد التاريخ.

لم تتوجّه التوصية إلى بيان المواقف وعرض التوضيحات الخاصة بتلك الأحوال الظرفيّة التي أحاطت به، خصوصاً أنّ الظرف المحيط بكتابة الوصية يشير إلى بدء انكشاف التحرّك الحسيني وإعلان المفاصلة الصّريحة مع الوضع الاستكباري القائم.

وورد الإصلاح في البلاد في خطبة تطرّق فيها الى ترك الحكم الأموي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

حيث يقول: (اللهم إنك تعلم أنه لم يكن ما كان منا تنافساً في سلطان، ولا التماساً من فضول الحطام، ولكن لنرى المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، ويأمن المظلومون من عبادك، ويعمل بفرائضك وسننك وأحكامك.
فإن لم تنصرونا وتنصفونا قوي الظَلَـَمة عليكم، وعملوا على إطفاء نور نبيكم وحسبنا الله وعليه توكلنا، وإليه أنبنا، وإليه المصير).

ومن هذا النص الشريف يتبدّى إصلاح البلاد بهدف إظهار معالم الدين وأمن المظلومين والعمل بالفرائض والسنن والأحكام. وإذا كان إصطلاح المعالم يعني، كل ما تنتجه الحضارة الإنسانية وكل ما يضيفه الإنسان إلى الطبيعة، من الاجتماع الى السياسة والثقافة والآداب والفنون، فإن معنى إصلاح البلاد يشمل الإنسانية جمعاء.
ولعل أظهر تلك الأهداف الأستراتيجية التي استظهرها الدكتور الجعفري من وحي الواقع وخضمه المتلاطم:

وكلما ترفعنا عن الانقسامات الطائفية والعرقية والإثنية، تقدمنا أكثر في طريق الحسين، وكلما اصطففنا إلى جانب بعضنا الآخر إخواناً، عمقنا من ذلك الانتصار ومنحناه ديمومة البقاء والقوة والمنعة...
لقد استطاع الإمام الحسين أن يحرك الساكن بصرخة لاتزال أصداؤها تتردد حتى اليوم، وإلى يوم الدين، وهو ما يؤكد أن النهضة الحسينية لم تكن عبثية، ولم تأتِ من خلال ردة فعل عشوائية، وإنما هي حركة مدروسة منذ زمن جده محمد، وأبيه علي، وأخيه الحسن (صلوات الله وسلامه عليهم).

وللسلام أسّس الإمام الحسين منهجاً ثالثاً لتحقيق السلم على مستواه العالمي بين سلام الذات والاستسلام والعزلة، وعدم التفكير بإحداث تغييرات في البنى والقوى والعناصر الفاسدة في البيئة والمجتمع، واتخاذ مواقف من الاحداث الاجتماعية والسياسية الكبرى، وبين من يرى أن السلام لا يتحقق في المجتمعات المحلية والدولية إلا من خلال تصنيع وامتلاك الأسلحة المدمرة والفتاكة كالقنابل الذرية والهيدروجينية والجرثومية وغيرها، ويعتبر السلاح المتطور كمّاً وكيفاً هو الضمان لتحقيق السلام العالمي. ليس هذا فحسب، بل نرى من يسفك الدماء ويقتل الأبرياء ويبيد الشعوب وهو يرفع شعارات السلم والسلام!!.
والامام الحسين (ع) هو المنهج الثالث الداعي للسلام، لأن مدرسة الحسين مدرسة تقف من العنف والعدوان والتعسف والإرهاب موقف المضاد، فكرة وسلوكاً
وأما منهج الامام الحسين (عليه السلام) في السلام فهو أيضاً لا يكون بلا ثمن، ولكن هذا الثمن الذي يدفعه الحسين لا يكون على حساب الآخرين بالقتل والترهيب،

فالحسين أشد حرصاً على منع سفك الدماء ليس في صفوف الأنصار والموالين فحسب، وإنما في صفوف الاعداء والمبغضين، فالحسين (ع) كان يدعو جيش السلطة وقادته أن يعدلوا عن قتله وقتل عياله وانصاره ليس خوفاً أو طمعاً في شفاعتهم، ولكن خوفاً عليهم من العار ودخول النار... إنه عليه السلام كان يعلم أن القوم لو قتلوه لا يعيشون كثيراً من بعده، وأن الله سيعاقبهم بسبب قتلهم لسبط النبي وانصاره.

وللدكتور الجعفري هذا التوصيف:

هذا هو سلام الحسين هو يريد الإصلاح ويطلبه ولا يحيد عنه، ولكنه يحرص أن يكون هذا الاصلاح ثورة بيضاء، وإذا كان لابد من التضحية فليكن هو وعياله وانصاره أول المضحين!!.

وأما كيف يمكن للسلام وسبيل اللاعنف أن يفرض نفسه على من لا يؤمن بالسلام، ويستعمل كل القوى التي توجب السيطرة والدمار؟

هناك اتجاهان يتصارعان من أجل التغيير الاجتماعي والسياسي والثقافي وهما مستمران مدى الحياة، اتجاه يؤمن بان التغيير لا يكون تغييراً حقيقياً إلا بالقوة أياً كانت، وهو لا يتوانى عن استخدام سلاح العسكر في وجه من يقف في وجه، وهذا الاتجاه يبرر كل ما يقوم به من اعمال وحشية كالقتل والتهجير والسجن والتعذيب ومصادرة الحريات ويزعم أن هدفه تحقيق الاستقرار والأمن وسيادة القانون... واتجاه ينطلق من تغيير بنيته التحتية سواء أكانت ذاتاً شخصية أو ذاتاً مجتمعية ليعقبها تغيير على مستوى البنية الفوقية وهو ما ينسجم مع القرآن الكريم: ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم)) وكما ورد على لسان الإمام علي (عليه السلام) (كيفما تكونوا يُولّ عليكم..).. لعل هذه الحقيقة الإسلامية تحولت إلى مسلّمة اجتماعية فقد ورد على لسان (جون آدمز) الرئيس الأميركي الثاني: إن الأمة الأميركية ما كانت لتحصل على استقلالها السياسي من الاحتلال البريطاني عام 1783 لو لم تتحرر في داخلها على مستوى العقل والقلب...

كما أن من الأهداف الأستراتيجية التي كان يهدف أبو الأحرار تحقيقها هو التغيير الإيجابي ذلك القانون الصارم الذي يُعَد من طبيعيات النظام الكوني، ولا تستطيع الإنسانية التخلف عنه أو الخروج من تحت طائلته...

الجعفري ومن وعي الحركة الإنسانية في كدحها نحو التكامل والتنمية البشرية كشف عن:

إن المتمعن في سير الأمم والشعوب والحضارات، يجد فارقاً ملحوظاً بين حياتها الحاضرة وتاريخها الغابر، بمعنى أنها إما قد تقدمت أو تخلفت أو اندثرت تحت كثبان التاريخ.
إذن فالتغير حالة طبيعية في الأمم سواء أكان هذا التغير صادراً من ذات المجتمع، بغية كسر النسق المعتاد والانطلاق نحو مكاسب أخرى حسب هدف التغيير ونوعه ثقافي أو سياسي أو اجتماعي، أم صادراً من قوى ضاغطة على المجتمع كأن تكون قوى طبيعية كالأمراض والفقر والزلازل والأعاصير... أو هجمة عسكرية أو ثقافية تكون نهايتها إحداث تغيير في سلوك المجتمع نحو الأفضل أو الأسوء.

النهضة الحسينية ... في الأزمنة الثلاثة
لم تكن الجزيرة العربية التي انبثق منها الإسلام دائرة الهدف السماوي وحده بل كانت بؤرة ومركز تفجير للواقع العالمي بحيث حاول الإسلام من خلال قيادة التحولات الكبرى في تلك النقطة أن يقود الحاضر الإنساني والمستقبل ولذلك فهو مشروع (إنساني عالمي)، بمستوييه النظري والتطبيقي في الواقع الإنساني في الزمان الممتد بين البعثة والقيامة أي انه يتابع كل أجيال الإنسان في هذه الدائرة الواسعة من الزمان وأنه أيضاً مكانياً كان يخاطب كل أصقاع المعمورة بلا أي استثناء ولهذا فإنه بدءاً قصد حصول الحركة الثقافية والتطورات ضمن فضاءاته الخاصة وبمعنى توجيه الحركة تصاعدياً ولهذا فإنه عيّن قيادات تستمر لمدة اثني عشر جيلاً تصل الإنسانية خلال هذه الأجيال إلى حالة من النضج والأهلية ثم لتتابع تطورها بقيادة العلماء الذين تمت تهيئة ظروف ولادتهم ولادة سليمة خلال هذه الفترة الطويلة.
تقابلت في عاشوراء قِيَم الإسلام مع قيم الجاهلية التي سرّبها الأمويون إلى المجتمع المسلم فيما يفترض أن تكون السلطة ممثلة بالإسلام النظيف، وأن تكون المعارضة للقيم غير الإسلامية بالمعنى العام للجاهلية سواء كانت عربية أو جاهلية أمم أخرى لكي تصل في النهاية إلى تحوّل هذه القيم المنحرفة إلى حالة من الضآلة وضعف التأثير.
وللجعفري هذا التحليل..
هذا التقابل في القيم ناتج عن انقلاب في الأحوال لأن المنهاج الإلهي المتمثل في القرآن الكريم والذي عمل على تنفيذه الرسول الأكرم (ص) كان منهاجاً متكاملاً والتكامل صفة طبيعية بالنسبة لشيء يصدر عن الله، وأنه أيضاً عهد به إلى رسول كامل وكان من المفترض أن يبقى هذا التكامل متواصلاً لمدة اثني عشر خليفة يقودون الأمة، ويطاردون رواسب الجاهلية في المجتمع إذ لا يعقل أن تنتهي جاهلية استمرت آلاف السنين خلال الفترة التي عاشها الرسول الأكرم (ص) بل إن القضية تتلاحق

للقضاء عليها كأفكار وسلوكيات عبر إنتاج الكيفيات العالية من المسلمين بواسطة التربية التي يواصلها الإمام المعصوم (ع) وبعض المسلمين من ذوي القدرة على مواكبة هذا التكامل، كما أسست لتيار مقابل ظل يتسع تدريجياً، ويستفيد من السقطات التي تمارسها السلطة وهذا التيار سيظل في توسعه حتى ينتصر في النهاية.

وعلى هذا الأساس فإن الثورة الحسينية أوقفت مسلسل الاستمرار في التداعي وترسيخ القيم الأموية وفك الارتباط بينها وبين الإسلام ونسبتها إلى أصلها الأموي...

العصر الأموي حاول نقل التراث الثقافي الجاهلي بأوسع صوره، ثم تحدث عملية نقل الموروثات الجاهلية الأخرى بصورة أسرع وأوسع أيضاً، لكنّ الإمام طرح نمط القيم المقابلة وحرك الوعي الخامل لتنشأ عملية صراع بين هذا التيار الذي أسسه الإمام وطرحه على الأمة بشكله الواسع محدداً الأساليب والغايات لتقوم القيادة الحقة بإيصال الثورة إلى أبعادها بعد استشهاد الإمام حيث أُعيد آل البيت إلى المدينة وفيه بدأ الإمام السجاد (ع) إكمال المسيرة ومن بعده بقية الأئمة (ع).

لقد تحرك الإسلام واستطاع خلال فترة وجود الرسول الأكرم (ص) أن يطبق كامل البرنامج الإلهي، وبذلك أسس لما يُعبر عنه ببناء السور الثقافي الذي يحصر الحركة في إطار الإسلام عالمياً وفي المركز (الجزيرة العربية).

الإصلاح الشامل

تحتاج المجتمعات إلى الإصلاح بصورة دائمة، وكان الهدف الرئيس من نهضة الحسين عليه السلام هو الإصلاح، ومحاربة الفساد والإفساد، وإشاعة القيم والمثل العليا، وتكريس مكارم الأخلاق، وبناء جيل صالح، ومجتمع راشد.
إن الأنبياء والأئمة (ع) كانوا يسعون دوماً إلى إصلاح العقيدة، وإصلاح الأخلاق، وإصلاح المجتمع، وإصلاح الفكر والثقافة، وإصلاح السلوك والعادات الفاسدة.
ورسالة الإصلاح هي رسالة الإمام الحسين (ع) التي من أجلها ثار ونهض وقدم نفسه وأهله وأصحابه فداء من أجل تحقيق الإصلاح الشامل في الأمة يقول الإمام الحسين (ع) وهو يعلن الهدف من ثورته: (وأني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رَدَّ عليَّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين).

وبهذه الكلمات أوضح الإمام الحسين (ع) الهدف من ثورتــه، وهو الســعي من أجل تحقيق الإصلاح الشامل في الأمة، وليس تحقيق أي مصالح شخصية، أو السعي من اجل استلام السلطة، إذ كان الإمام الحسين (ع) يعلم أنه سيقتل في المعركة؛ ومن هنا تبرز عظمة الإمام الحسين (ع)، حيث أنه ضحى بنفسه وبأهله من أجل تحقيق الأهداف السامية المتلخصة في الإصلاح الشامل، والقضاء على الفساد السياسي، ونشر القيم والمبادئ والمثل.

إن أهم درس يجب أن نتعلمه من نهضة الإمام الحسين (ع) هو الاستعداد لتقديم كل غال ونفيس من أجل الإصلاح في الأمة..

إن الإصلاح الذي تحتاج إليه الأمة في هذا العصر، وفي كل عصر هو الإصلاح الذي أعلن عنه الإمام الحسين (ع) وهو الإصلاح الشامل المشتمل على إصلاح العقيدة، وإصلاح الأخلاق والسلوك، وإصلاح الثقافة والفكر والمعرفة، وإصلاح السياسة، وإصلاح الاقتصاد، وإصلاح المجتمع، وإصلاح الإعلام...إلخ.

ولرئيس تيار الإصلاح الوطني الدكتور الجعفري هذه الدعوة:

ولا خيار أمامنا لأجل تحقيق التقدم والتطور الحضاري ونحن في الألفية الثالثة إلا بتبني خيار الإصلاح الحقيقي القائم على أسس سليمة، والمنطلق من حاجات الأمة للإصلاح، وعلينا أن نبدأ عملية الإصلاح الشامل لمجتمعنا قبل أن يفرضه علينا الغير برؤيته وفلسفته.

ويمكن تلخيص أهم مفردات الإصلاح الشامل والحقيقي الذي تحتاجه الأمة الإسلامية في مجموعة من العناوين كالدعوة إلى توسيع دائرة الحريات العامة، واحترام حقوق الإنسان، والحفاظ على الوحدة الإسلامية في إطار التنوع، وترسيخ العدالة الاجتماعية، والتوزيع العادل للثروة، وتكافؤ الفرص، والموازنة بين الحقوق والواجبات، وإشاعة ثقافة التسامح والحوار.. إلى آخر ما هنالك من مفردات مهمة في عملية الإصلاح الشامل والحقيقي.

ومن أوليات المشروع الإصلاحي الذي رفع لواءه الإمام الحسين عليه السلام والذي ماانفك الإمام الحسين (ع) يذكر به حتى أعداءه هو إعلاء مبدأ (الحرية) باعتبارها الوسيلة المهمة لتحقيق إنسانية الإنسان، وبها يستطيع التعبير عن آرائه وأفكاره ووجوده. لقد كان الإمام الحسين كثيراً ما يركز على أهمية التحرر من الذل والقهر إذ يقول (ع) : (لا.. والله، لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفر فرار العبيد) ويقول لأعدائه مطالباً إياهم بالتمسك بالحرية: (إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم).

لم يكن الإمام الحسين (ع) يبحث عن الحرب، وهو القائل: (إني أكره أن أبدأهم بقتالٍ)، وهو الذي بكى على أعدائه لأنهم سيدخلون النار بسببه، فخروجه ما كان إلا من أجل السلام، لذلك نجده قد استخدم مع أعدائه سلاح

اللاعنف، لذلك مال عدد منهم نحو معسكره، وعندما خاطب ضمائرهم بقوله: (إذا كرهتموني فدعوني انصرف عنكم إلى مأمن الأرض). وجدناهم قد أبوا إلاّ قتله!! وما كان لهم ذلك وإنما سُحِقوا هم، وبقي الحسين صرخة حق وسلام يترنم بها كل باحث عن القيم والفضائل.

لقد حفر الحسين في ضمير الامة نهراً مباركاً يفيض بالقيم وتنبض على شواطئه أشجار الانسانية بظلالها الوارفة فصار فرقاناً بين الحق في أجلى صوره والباطل وإن كثرت لبوسه وأشكاله..
والحسين هو مصباح الهدى سفينة النجاة كما عبر نبينا الأكرم (ص) ويالسعة هذه السفينة وقوة ربّانها على الرغم من شدة العواصف وعتوّ الأمواج...

حركة كربلاء وواقعنا المعاصر
امتلكت ثورة كربلاء المباركة في لحظتها الراهنة أحد أهم ثوابت الوعي الإنساني مجرداً عن مقولتي الزمان والمكان، وهو طاقة الانبعاث والقدرة على التجدد الذاتي والتجلي على اختلاف الزمان والمكان، وتلك الخاصية منحتها طاقات متألقة يستمد منها المجتمع في حركة الجبرية نحو الكمال والإصلاح؛ فكانت بكل تأكيد إحدى مدخلات النهضة الإنسانية الكبرى بل رايتها التي يرفع لواءها دعاة الإصلاح والتغيير الشامل
يقول الدكتور الجعفري:
ما يجب أن نتمثّله في حياتنا المعاصرة، هو أن نكون منسجمين مع الخط الإسلامي القرآني الإيماني، فحياتنا يجب أن تكون حالة مستمرة تتحرك في إطار تغيير الواقع، ويجب أن تستمر.
وإذا كان هذا هو هدفنا في حياتنا، فإن معنى أن نتحرّك في الحياة هو أن تكون حياتنا نتاجاً مستمراً على جميع الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية العامة
إنَّ التزام قضية الإمام الحسين (ع) تحمّلنا مسؤولية أن نقف حيث وقف، وأن نتحرّك حيث تحرك. إنّه كان يتحرك من أجل طلب الإصلاح في أُمة جدّه، فهل نتحرّك في خط الإصلاح في أُمة جدّ الحسين (ع)؟ كان يتحرك في خط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلنتحرك في هذا الخط. الحسين كان ينفتح على الله بكل حياته، ويضحّي في سبيل الله بكلّ حياته، فهل نحن كذلك؟

لا بد لنا من أن نعمل بكل ما لدينا من طاقة في سبيل أن تكون الأُمة واعيةً لقضاياها ولرسالتها، وللساحة الّتي تتحرّك فيها، لأن الأوضاع الّتي نعيشها

فـي هـذه المرحلـة مـن حياتنـا الآن وفـي المـستقبل، تتحـرك لتلـبس الحـق بالباطل، وتحاول أن تخاطب عقول الجمـاهير وعواطفهـا بكثيـر مـن الأفكـار الّتـي تلتقـي مـع نوازعهـا الذاتيـة، ولكنهـا لا تلتقـي مـع مـصالحها وأهـدافها الحقيقيـة.

لقد كان هناك ارتبـاط دينـامي بـين حركـة كـربلاء ومـا سيقع فـي المستقبل مـن وقـائع وحـوادث، فالمـستقبل بالنـسبة لنـا ولمـن يـأتي بعـدنا هـو البُعـد الإنـساني النبيـل لهـذه الحركة التاريخية الحضارية التقدميَّة الكبرى.
ولا يمكن في ضوء هذه المسلـّمة التاريخيـة التـي لامنـاص منهـا عـزل مـستقبل الأمـة خاصة ما تقوم به من أدوار حضارية فاعلة متألقة، ومنطلقة عن هذا البعـد الإنـساني النبيل الذي هو أحد مظاهر السنَّة التاريخية وتطبيقاتها الصادقة.
فـالمؤمن كـأي فـرد فـي مجتمعـه عليـه أن يكـون أشـبه بكـائن متمـرد علـى كـل شـيء مضـاد للحق والعدال ، وهو التمرد الإيجابي ليسهم فـي صـنع دورة حـضارية جديـدة للإنـسانية، ويـسخر قدراتـه لتأسـيس المجتمـع الفاضـل، ويـضع بـصمته الواضـحة فـي بنـاء النسيج العام للمجتمع.

إننّـا مـسؤولون أن نـصنع تاريخـاً، بـل لنـصنع التـاريخ وأن نُبْـدع حيـاة، وأن نحرّك طاقة، وأن نجسّد موقفاً في الحياة... تلك هي مسؤوليتنا.
إنهـا كربلاء، وكربلاء استطاعت أن تصنع جمهوراً إصلاحياً يتحـرّك فـي كـل زمـان ومكـان، ليـصنع لنـا أكثـر مـن كـربلاء وأكثـر مـن موقـع فـي خـطّ الإمـام الحسين (ع).

دور المرأة في النهضة الحسينية
وقفت المرأة في عاشوراء كالطود الشامخ وكان لهـا دور ريـادي كبيـر ومـؤثر سـواء فـي المعركـة أو بعـدها وتجلـت رسـالة الكلمـة فـي الثـورة الحـسينية عبـر امـرأة رقيقـة تركت منزلها، وأسرعت تحث الخطى خلف أخيها في رحلته إلى الشهادة تلك المـرأة العظيمة زينب (عليها السلام) التـي تعلـم الرجـال مـن سيرتها معـاني الرجولـة زينـب (عليهـا الـسلام) وبقيـة النـساء الهاشـميات شـاركن فـي إكمـال مـسيرة الثـائرين التـي بدأوها بالدم، فالإمام الحسين (عليه السلام) كـان مـن الـذين عملـوا علـى تركيـز حـق المرأة في المشاركة في الأمور المهمة التي تتعلق بالدولة الإسلامية فقد أوكل الإمـام (عليـه الـسلام) لزينـب (عليهـا الـسلام) دوراً مـن أعظـم الأدوار، والـذي يتوقـف عليـه مـسار الحركـة الإصـلاحية التـي قـام بهـا الإمـام (عليـه الـسلام) لحفـظ الإسـلام مـن الـضياع، ومن ثـم كـان الـدور الـذي أوكـل للـسيدة زينـب (عليهـا الـسلام) يتوقـف عليـه حفظ الدين الإسلامي برمّته.

ولعل أوضح مثال على ذلك زوجة زهير بن القين حينما امتنع عن الاستجابة لنداء الحسين(عليه السلام) نرى ذلك الموقف الرائع الذي وقفته تلك المرأة حينما قالت "يا زهير ابن بنت رسول الله يدعوك ثم لا تجيبه ما ضرك أن تذهب وتسمع ما يقول ثم ترجع " ولعل موقف طوعة الكوفة يدلل على أن المرأة المسلمة الموالية كانت حاضرة في تلك المواقف السياسية والجهادية الى جانب الرجل , هذا لعله لم يأتِ من فراغ وإنما كانت المرأة في تلك الظروف تدرك عظم المسؤولية الملقاة على عاتقها؛ لهذا فإن النساء باتت تمارس دور لا يقل خطورة عن دور الرجل, وهنا نأتي الى نساء كر بلاء اللواتي واجهن الأعلام الأموي والسبي غير مكترثات بمصيرهن لان الأمام (عليه السلام) أكد لهن في اكثر من مناسبة بأنه لا طاقة للعدو على إيذائهن فقد قال (عليه السلام) في كلمة له يوم العاشر: (استعدوا للبلاء واعلموا أن الله حافظكم ومنجيكم من شر الأعداء ويضرب أعاديكم بأنواع البلاء).

إن دور المرأة لم يقلّ عن دور الرجل في شيء فقد قامت النساء، بتصحيح وتوضيح أهداف الثورة لدى العامة والخاصة ممن التبس عليهم الأمر بفعل المفاهيم و التربية الخاطئة التي كان يتبعها الحزب الأموي فالحوراء (عليها السلام) أدركت أن عليها واجب شرعي ومسؤولية لهذا نجد أن الأمام (عليه السلام) لم يبعد النساء والأطفال لا بل لم يتركهن في المدينة و إنما عمل على اصطحاب العائلة كي تكمل النساء مسيرة الثورة من خلال الخطابات الرائعة التي ألقتها الحوراء (عليها السلام) في الكوفة، أو في مجلس يزيد فقد كان لكلماتها والأمام السجاد (عليه السلام) وبقية النسوة الأثر الكبير في جعل ميزان الأحداث لصالح القضية الحسينية فهذه زينب (عليها السلام) تقف لتقول وهي بكل وقار وجلال وهيبة تخاطب يزيد بن معاوية: أ من العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسول الله حيارى قد هتكت ستورهن، وأبديت وجوههن تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد أ تظن إن بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة.

المرأة الحسينية اليوم هي المرأة التي تؤدي دوراً حضارياً في نهضة العراق وتدخل عنصراً فاعلاً في جميع برامج التغيير الشامل للإنسانية، ويُوصي الدكتور الجعفري بضرورة الاطلاع على الواقع التاريخي والصفحات المشرقة للمرأة في تغيير المجتمع الإنساني، وتقدير أدوارها الكبيرة، وجعلها قوة للمرأة، وأنموذجاً حسناً مؤثراً على عامة النساء في الاتجاه البنائي والتنموي العام، حيث تمثل هذه الأدوار والمواقف نسيج حركتها وفاعليتها الحضارية. كما يوصي والحديث للسيد الجعفري بـ :

غرس القيمة الإنسانيَّة للمرأة في التكوين النفسي والعقلي للرجال وتنمية اتجاهات موضوعية لديهم معززة لأدوار المرأة ومواقفها المتألقة في نهضة المجتمع...

يدعو المرأة العراقية كذلك لأن تتأسى بزينب عملياً من خلال حضورها الفاعل في ميادين الحياة على اختلافها

السيدة زينب (عليها السلام) قد القت الحجة على بناتنا بأنهن لابد من ان يواصلن حمل مسؤوليتهن في بناء العراق الجديد وقطع دابر العودة امام البعث الكافر الحزب الذي عاث في الارض فساداً ونشر القتل والدمار واشاع الفقر والتبعية في صفوف العراقيين... ما قطعته المرأة العراقية هنا لا يستهان به فهي اليوم تدخل في مجالات العمل والمعرفة وتشارك في البرلمان وفي مجالس المحافظات وتطرز قوائم الترشيح باسمها وتنتخب في صناديق الاقتراع وتسهم في صناعة العراق الجديد...

النهج الحسيني في التغيير

- ثقافة عاشوراء

عاشوراء مجموعة القيم والمفاهيم، والأهداف، والدوافع، والخلق الرفيع، وإذا ما توافرت هذه الثقافة في أي مكان فهي كفيلة بخلق حادثة كحادثة كربلاء، وتربية الناس على مقارعة الظلم والدفاع عن الحق.

- الشعار

يعتبر الشعار واجهة الهدف، وله دور العنوان الذي يحمل الفكرة...

(.. هيهات منا الذلة ..) الحسين وأصحابه هم القمم التي لا تنحني، والرؤوس الشامخة التي لا تذل، وإن الله قد فوّض للمؤمن أموره كلها، ولم يفوض له أن يذل نفسه، وهكذا قبل الحسين وأصحابه أن يقطعوا أشلاء، وهم أعزة شامخون؛ وتأكيداً لهذا الشعار كان الحسين يردد: (الموت أولى من ركوب العار ... والعار أولى من دخول النار)، وكذلك: (لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر إقرار العبيد.. أو ولا أفر فرار العبيد)، (ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً) فما أكثر من يدعون أنهم ينتهجون الصراط المستقيم ، وأنهم مستعدون للتضحية في سبيله، ولكنها دعاوى لا تتعدى لقلقة اللسان أما الحسين وأصحابه فكان الواحد من أنصاره لا يموت حتى يوصي الآخرين بالاستشهاد بين يدي الحسين.

- عاشوراء الإنسانية

عاشوراء الحسين لم تكن حكراً لمذهب دون آخر، و لم تتحدث باسم طائفة دون أخرى بل كانت الفيصل بالنسبة لشبهة الباطل بالحق؛ فأماطت اللثام عن الإسلام المزيف، ولم يكن في خطابها سوى (لا إله إلا الله محمد رسول الله)..

- عاشوراء الحضارة

التفاعل مع عاشوراء لا يكون صحيحاً إلا من خلال وعي روح عاشوراء أي رسالتها للأجيال المسلمة والإنسانية جمعاء، و إذا كنا فعلاً نريد أن نرتب بيتنا الإسلامي بما يهيؤه لان يكون صورة للتمدن الإسلامي و الحضارة الإسلامية السمحة التي تملأ العقل و القلب و الحياة بالحق و الصدق، فهذا طموح بحاجة إلى همّة روحية وإرادة فكرية و تجربة حركية إصلاحية لا تخشى لومة لائم لتقف أمام كل ما من شأنه استثمارها في مشاريعه الذاتية.

- مدرسة عاشوراء

عاشوراء عنوان الرشاد الإنساني الثائر على الظلم والهوان والذلة، وعي ثقافة الإصلاح الجذري التي أنجبت رجالاً يصنعون البسمة على وجوه المظلومين، عاشوراء الحسين رسالة حضارية، توحي بأن البناء الحضاري بحاجة إلى ثقافة حضارية إسلامية محمدية تغني الوجود بالتوحيد الصحيح.

- أستراتيجيات عاشورائية

وكلما ترفعنا عن الانقسامات الطائفية والعرقية والإثنية، تقدمنا أكثر في طريق الحسين، وكلما اصطففنا إلى جانب بعضنا الآخر إخواناً، عمقنا من ذلك الانتصار ومنحناه ديمومة البقاء والقوة والمنعة...

لقد استطاع الإمام الحسين أن يحرك الساكن بصرخة لاتزال أصداؤها تتردد حتى اليوم، وإلى يوم الدين، وهو ما يؤكد أن النهضة الحسينية لم تكن عبثية، ولم تأتِ من خلال ردة فعل عشوائية، وإنما هي حركة مدروسة منذ جده محمد، وأبيه علي، وأخيه الحسن (صلوات الله وسلامه عليهم).

- تلمّس الحاجة إلى الإصلاح

الواعون وحدهم الأقدر على تحسس الأخطاء التي يعيشها المجتمع وعظم خطرها عليه، لذا فان حركة التغيير تبدأ بتلمس تلك الأخطاء واستكشاف معالمها ومن ثم السعي لاستصلاحها. لذا فان الإمام الحسين عليه السلام كان وحده الأقدر على معرفة خط الفساد الذي بات يهدد الأمة الإسلامية، ومن هنا عبر الإمام الحسين (عليه السلام) عن إحساسه بتلك المشكلة بقوله: (وعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد) ومن خلال ذلك الإحساس تولد لديه شعور عميق بضرورة الإصلاح والحاجة إليه.

- الهدفية والتخطيط

(إني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا مفسدا ولا ظالما وإنما خرجت لطلب الإصلاح في امة جدي أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر) بهكذا قول حدد الإمام الحسين عليه السلام معالم نهضته والهدف الأساسي من خروجه، إذ لم يكن خروجا عشوائيا لا هدف من ورائه ولم يكن خروجا لأهداف أخرى دنيوية مثلاً.

لذا فان حركات التغيير الناجحة هي تلك التي تسير نحو هدف واضح لا لبس فيه، وتقوم وفق خطة محكمة تتلاءم مع الهدف والقراءة الصحيحة للحدث والمجتمع..

- المرأة

* المرأة في كربلاء كانت إحدى دعائم النهضة الحسينية المباركة، وأما المرأة اليوم فيمكن أن تجسد المرأة الحسينية في المشاركة عمليات البناء والإعمار الجديد للمجتمع الإنساني في حركته التغييرية الشاملة للعراق الجديد..

* المرأة الزينبية هي التي تسهم مع شقائقها الرجال في صنع دورة حضارية جديدة للإنسانية، وتسخر قدراتها لتؤسس من جديد المجتمع الفاضل، وبذلك تضع بصمتها الواضحة في بناء النسيج العام لمجتمعها.

تأملات في المشاعر الحسينية

بقلم الدكتور إبراهيم الجعفري

((ذلك ومن يعظّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب)).

المشاعر الحسينية عموماً والتي نعيشها في المجالس والمواكب الحسينية، وما تتخذ من أشكال مختلفة من الصور الإنسانية المعبّرة عن الأسى والحزن ليست ضرباً من ضروب الانكسار النفسي، ولا هي – باعتبار توارثها عن الأجيال السابقة – مجرد تقاليد اجتماعية فارغة من الأفكار والمفاهيم الرسالية، كما إنها ليست سلوكاً سلبياً خالياً من الأهداف والنتائج التي تسهم في تغيير المجتمع.

إن المشاعر والأحاسيس الحسينية مصداق للمشاعر المعبّرة عن البعد الرسالي في الشخصية الإسلامية بما تحمل من أفكار ومتبنيات، وعن البعد الإنساني في الشخصية السوية بما تكشف عن تكوين نفسي متكامل ذلك لأن المشاعر الإنسانية ومظهرها المتنوع تشكل جزءاً أساسياً في الشخصية، ولا يمكن تصور إنسان سويّ من دون أن يكون له وعاء من المشاعر يشغله بالحب والكره بغضّ النظر عن أن يكون ذلك الحب والكره في الله (تبارك وتعالى) أم في غيره فهي – أي الأحاسيس- من حيث الأصل مسألة تكوينية في الإنسان وهي التي تشكل وعاءه العاطفي، وأما محتوى الوعاء فإنه مرهون باتجاه الإنسان الفكري، ومستوى وعيه فقد يملأ وعاءه بالصواب من المشاعر، أو يملؤه بالخطأ، وقد تتجه المشاعر اتجاهاً بناءً أو معاكساً وفي كلا الاتجاهين هناك تناسب مضطرد بين مستوى المشاعر ومستوى الوعي.

النظرة الدقيقة للوسط الحسيني الذي يظهر المشاعر تجاه الإمام الحسين تكشف النقاب عن التفاوت في طريقة التعبير عنها بالحزب والأسى وهي طابع مميز لكل الحسينيين بكل صوره التي يتجلى بها هذا الحزين، وذاك المتأسي وتختلف تبعاً لاختلاف المشاعر بشكل أكثر أصالة. فالإنسان المتحضر أو البدوي والمجتمع الواعي أو المتخلف. كل هؤلاء لا يختلفون من حيث أصل وجود المشاعر والأحاسيس، إنما الذي يختلفون فيه هو نوع المشاعر وطريقة التعبير عنها لذلك لا نجد أمة تخلو من مشاعر، ولا تحرص على إظهارها بما يناسبها من أسلوب، فأمتنا الإسلامية حين تبدي مشاعرها الإسلامية تجاه الإمام الحسين (عليه السلام) لم تخرج بذلك عن هذه الحقيقة التي خضعت لها كل الأمم التي تعظم معاني التضحية والإيثار في رجالاتها، وتحاول أن تجدد ذكرياتهم في كل سنة من أجل الحفاظ على تلك الجذوة، ومن أجل إذكاء روح الفداء فيها. فالشعب الفرنسي مثلاً يحيي سنوياً ذكرى (جان دارك) البطلة القومية الفرنسية حين دفعت ثمن إخلاصها بأن تحرق من قبل الإنكليز على الرغم من كل ما نُحِت من قصص وأساطير حول (عذراء أورليان) (جان دارك) فإن ذلك لا يمكن مقايسته بمكانة الحسين (عليه السلام) وما قدمه للأمة الإسلامية وللإنسانية جمعاء، وقل مثل ذلك فيما يقال بحق (جيفارا) و(سبارتيكوس) والنماذج الإنسانية التي قدمت من أجل الآخرين على ما يشاع عنهم.

طبيعة المنهج والثورة الحسينية:

المنهج الحسيني (وهو المنهج الإسلامي) تعبير عن الخط الوسط الذي يُنزل الفكرة من عالم الذهن إلى عالم الوجدان.. من عالم العقل إلى عالم الإحساس؛، ليطلق العنان أمام المبادئ لئلا تبقى حبيسة الخاصة من المفكرين والمنظّرين لتعم كل الفئات الاجتماعية المتنوعة، فيتفاعل معها المفكر والمتعلم البسيط، فيتحمس لها الواعي والأقل وعياً وبذلك تغمر كل الناس، الكاسب منهم والفلاح والعامل والعالم وكل ذوي الاختصاص. وهذا المنهج الوسط وبمزجه الموفق بين الفكرة والإحساس، بين العقل والعاطفة، يرفض بالضمن اتجاهين متطرفين، اتجاهاً فكرياً تجريدياً لا يقوى على النفوذ إلى وجدان الإنسان، ويعجز عن صياغة مشاعره والدخول في مختلف جوانب حياته على الرغم مما يمتلكه من عمق على مستوى الفكرة، وقوة على مستوى الاستدلال. كما يرفض بالمقابل الحالة العاطفية التي تأخذ بالإحساس الانساني بعيداً عن الوعي بحيث يظهر من الحب والكره، ويشتد به الحماس فيقبل مرة ويرفض آخرى وهو لا يدري لماذا كل ذلك، فقد يُسَرّ فيضحك، أو يحزن فيبكي من دون أن يعلم لماذا؟ لأن عاطفته فارغة من الفكر. فقد ذكر أن أبا نصر الفارابي ورد إلى دمشق، ودخل على سلطانها آنذاك وكان سيف الدولة وبعد كلام طويل بينهما في مجلس ليسف الدولة أخرج الفارابي عيداناً، وركـّبها، ثم لعب بها؛ فضحك كل من في المجلس، ثم فكـّها، وركـّبها تركيباً آخر، وضربها فبكى كل من في المجلس، ثم فكـّها وغيّر تركيبها وحركها فنام كل من في المجلس حتى البواب فتركهم الفارابي نياماً وذهب. ولا أريد أن أدافع عن أصل هذه القصّة لكنها لا تخلو من دلالة.

الإسلام يريد من الإنسان أن يعلم لماذا يضحك حين يضحك، ولماذا يبكي حين يبكي، وذلك يعني أنه يريد أن يعطي زمام الأمر بيد الإنسان؛ ليكون فعلاً ومبادرة يفهم السبب فهماً يصل حد الوعي ويطلق العنان لعواطفه بحدود التحكم الإرادي ومتى ما خضعت مشاعر الإنسان إلى فكره وإرادته اتجهت لخدمة أهدافه بحيث يكره على مستوى المشاعر في الموطن الذي يرفض ويقول (لا) من موقع القناعة، ويحب شعورياً في الموطن الذي يقبل ويقول (نعم)، فتتحول الى عقل يعي وإحساس يتجاوب، وهذا هو الذي يوفـّر له رصيداً من الاندفاع النفسي والشعوري لخدمة الأهداف. وهذا معناه أنه قادر على عقلنة عواطفه من دون أن يكون صريعاً لشهونة عقله.

وثورة الإمام الحسين (عليه السلام) بطبيعتها استهدفت إثارة المشاعر عند الإنسان، إثارة تقوى على رفض الظلم، ونصرة الحق والتضحية من أجله. إنها ثورة اتجهت لتحرير إرادة الأمة بعد أن تكبّلت، وخاطبت وجدانها من جديد بعد أن تبلـّد إحساسها وأوشك ضميرها على الموت. فالأمة كانت تعلم أن الإمام الحسين (عليه السلام) على الحق لكنها لم تكن تقوى على نصرته، وإلا فبماذا نفسّر آلاف الرسائل التي وجّهت للإمام الحسين (عليه السلام) تطالبه بالإسراع بالقدوم إلى الكوفة، ثم تقتل رسوله مسلم بن عقيل (عليه السلام)، وتقتل هاني بن عروة. ولعل الفرزدق عبّر خير تعبير حين قال للحسين (عليه السلام): إن أهل الكوفة قلوبهم معك وسيوفهم عليك.

هناك معرفة، وهناك وعي للحق، ولكن من موقع الإرادة. والحسين (عليه السلام) يعرف جيداً ما وصلت إليه هذه الإمة، وما سيؤول إليه مصيرها إن لم يضحّ ِبنفسه، وأهله، وأصحابه، وهو حين يقدم هذه التضحية، ومن موقع كونه إماماً معصوماً وابن إمام معصوم وأبو الأئمة المعصومين، وأنه ابن فاطمة (عليها السلام) بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)... من هذا الموقع تقدّم الإمام (عليه السلام)؛ ليضع حداً لحالة الانحراف، ويعيد ركب الأمة إلى جادة الصواب. إن منزلة كهذه للإمام (عليه السلام)، وما تعرّض له من قبل، إضافة إلى ما تعرّض له حرم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من سبي كان قد أبرز مأساة الإسلام بأجلى صورها، وألقى الضوء على طبيعة الحكم الأموي المجرم بأبشع ما كانت عليه... كل ذلك من أجل أن يستوقف الأمة، ويهز ضميرها؛ كي تتأمل، وتسترجع إرادتها المفقودة. فالإمام الحسين (عليه السلام) يعرف سلفاً أن مصيره القتل، وهو يتجه إلى كربلاء، وإنما أصرّ على ذلك شعوراً منه أن تكليفه يقتضي ذلك.

لمّا عزم الحسين (عليه السلام) على الخروج من مكة إلى العراق قام خطيباً في أصحابه فكان مما قال: (الحمد لله وما شاء الله ولا قوّة إلا بالله وصلى الله على رسوله، رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين لن تشد عن رسول الله لحمته بل هي مجموعة له في حضيرة القدس تقر بها عينه،

وينجز بهم وعده. ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته، موطـّناً علـى لقـاء الله نفسه فليرحـل معنا فإني راحل مُصبِحاً إن شاء الله تعالى) ثم جاءه عبد الله بن عمر فأشار عليه بصلح أهل الضلال وحذره من القتل والقتال فقال له: (يا أبا عبد الرحمن أما علمت أن من هوان الدنيا على الله تعالى أن رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل؟ أما تعلم أن بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبيّاً ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون كأن لم يصنعوا شيئاً؟ فلم يعجّل الله عليهم، بل أخذهم بعد ذلك أخذ عزيز ذي انتقام. اتقِ الله يا أباعبد الرحمن، ولا تدَعَنّ نصرتي) (1).

(1) اللهوف: للسيد ابن طاووس.

وكان الحسين (عليه السلام) يقول: (وأيم الله لو كنت في حجر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقتلوني والله ليعتدن علي كما اعتدت اليهود في السبت والله لا يدعونني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي فإذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من فرام المرأة)) (2)

2بحار الانوار: ج 17.

وجاءه محمد بن الحنفية في الليلة التي أراد الحسين (عليه السلام) الخروج في صبيحتها من مكة فقال له: (يا أخي إن أهل الكوفة قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى فإن رأيت أن تقيم فإنك أعز من بالحرم وأمنعه فقال: يا أخي قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية بالحرم فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت) فقال له ابن الحنفية: فإن خفت ذلك فصِر إلى اليمن أو بعض نواحي البر فإنك أمنع الناس به ولا يقدر عليك أحد فقال انظر فيما قلت، فلما كان السحر ارتحل الحسين (عليه السلام) فبلغ ذلك ابن الحنفية فأتاه فأخذ بزمام ناقته وقد ركبها فقال: يا أخي: ألم تعِدني النظر فيما سألتك قال: بلى، قال: فما حداك على الخروج عاجلاً؟ قال أتاني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد ما فارقتك فقال: (حسين اخرج فإن الله شاء أن يراك قتيلاً). فقال: محمد بن الحنفية: إنا لله وإنا إليه راجعون فما معنى حملك هؤلاء النسوة معك وأنت تخرج على مثل هذا الحال؟ فقال إن الله قد شاء أن يراهن سبايا) فسلـّم عليه، ومضى (3).

(3) اعيان الشيعة: 593/1

ثم إن الإمام الحسين (عليه السلام) حين صمّم على الشهادة بهذه الطريقة التي تثير المشاعر، وتهزّ الضمائر لم يُرِدْ لها أن تقف عند هذا الحد بل أراد لها ابن رسول الله أن تتحول إلى ثورة تعصف بالظلم الذي حلّ، وتنتصر للحق مهما قلّ أنصاره. عن مقال للمستشرق الألماني الشهير (ماربين) حول فاجعة كربلاء: (إنه – أي الحسين – لم يتحمل هذه المصائب للحصول على السلطنة، ولم يُرد هذه الهلكة العظمى على غير علم، كما تصور ذلك بعض مؤرخينا، بدليل أنه كان قبل هذه الواقعة بسنين متطاولة يترنم بذكر مصائبه التي ستقع على سبيل التسلية لخواص أصحابه من ذوي الأفكار العالية والأدمغة الواسعة قائلاً: (سيُظهر الله بعد قتلي أقواماً يميزون الحق والباطل، ويزورون قبورنا، ويبكون على مصائبنا، ويأخذون الثأر من أعداء آل محمد) هؤلاء الجماعة يروجون دين الله وشريعة جدّي ونحبهم أنا وجدّي وسيُحشرون معنا يوم القيامة...).
وقد تحوّلت المشاعر الحسينية إلى رصيد ضخم لدى المسلمين يعزّز عندهم حالة الرفض لكل ألوان الظلم، وعاد المنطق الحسيني منطقاً متميزاً يعبّر عن حالة إنسانية يقوى فيها الإنسان من موقع المظلومية على ظالميه، ولعلّ ما نسب إلى غاندي خير تصوير لهذه الحقيقة ((علّمني الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر))...
ها هو المنطق الحسيني قد حقق ثورة إسلامية على الرغم من كل ما واجهت من تحديات، كانت السمات الحسينية طابعاً متميزاً لها.
إن روح الفداء وحب الاستشهاد وتوظيف ذلك لخدمة أهداف الإسلام والذود عنها استمدت من ثورة الحسين (عليه السلام).
ولم يقتصر هذا المنطق الحسيني على الثورة الإسلامية في إيران، بل انتشر ليعم أرجاء جديدة من العالم الإسلامي فساحات لبنان وفلسطين والعراق وغيرها درجت على هذا المنطق الإسلامي الرافض للظلم، وليس هذا إلا ثمرة من ثمار ثورة الإمام الحسين (عليه السلام).

قراءة تاريخية في المشاعر الحسينية:

لقد أشارت كتب الحديث والرواية للفرق الإسلامية المختلفة الى أن جبرائيل (عليه السلام) قد أخبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بنبأ مقتل الإمام الحسين (عليه السلام)، بل وأشارت الى مكان استشهاده وما رافق ذلك الخبر من إثارة مشاعر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، والحسين (عليه السلام) كان طفلاً صغيراً فإن هذه الحادثة تعتبر السابقة في مجال إظهار المشاعر تجاه الإمام الحسين، أظهرها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن كان عنده بعد أن نزل عليه الوحي وأخبره بذلك.
قال العلامة السيد محسن الأمين العاملي في صفحة 30 من مصنفه (إقناع اللائم على إقامة المآتم) ما نصه: (ذكر الشيخ أبو الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي في كتابه (أعلام النبوة) صفحة 83 طبع مصر فقال(4):

(4) اقناع اللائم على إقامة المآتم: 30 نقلاً عن كتاب ((أعلام النبوة)) ص 83 طبع مصر للشيخ أبو الحسن علي بن محمد الماوردي.

ومن إنذاره (صلى الله عليه وآله وسلم) ما رواه عروة عن عائشة قال: دخل الحسين بن علي (عليهما السلام) على رسول (الله صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يوحى إليه، فبرك على ظهره وهو منكب ولعب على ظهره فقال جبرائيل: يا محمد، إن أمتك ستفتن بعدك بقتل ابنك هذا من بعدك، ومدّ يده فأتاه بتربة بيضاء وقال: في هذه الأرض يقتل ابنك اسمها الطف. فلما ذهب جبرائيل خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أصحابه والتربة في يده وفيهم أبو بكر وعمر وعلي وحذيفة وعمار وأبو ذر وهو يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا رسول الله؟ فقال: أخبرني جبرائيل أن ابني الحسين يقتل بعدي بأرض الطف وجاءني بهذه التربة فأخبرني أن فيها مضجعه. ثم يضيف السيد محسن العاملي على ذلك بقوله: (أقول: ولا بد من أن يكون الصحابة لما رأوا رسول الله يبكي لقتل ولده وتربته بيده، وأخبرهم بما أخبره جبرائيل، أخذتهم الرقّة الشديدة فبكوا لبكائه، وواسوه في الحزن على ولده. فإن ذلك مما يبعث على أشد الحزن والبكاء ولو كانت هذه الواقعة مع غير النبي (صلى الله عليه وآله) والصحابة فكيف بهم معه فهذا أول مأتم أقيم على الحسين (عليه السلام) شبيه بمآتمنا التي تقام عليه، وكان الذاكر فيه للمصيبة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والمستمعون أصحابه).
وفي منتخب كنز العمال صحفة 112 الجزء الخامس للشيخ علاء الدين علي بن حسام الدين الشهير بالمتقي الهندي من علماء أهل السنة. قال أخرج الطبراني في الكبير عن المطلب بن عبد اللهبن حنطب عن أم سلمة قالت: كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جالساً ذات يوم في بيت فقال: لا يدخلن عليّ احد فانتظرت فدخل الحسين فسمعت نشيج النبي يبكي، فاطلعت فإذا الحسين في حجره أو إلى جنبه يمسح رأسه وهو يبكي فقلت: والله ما علمت به حتى دخل. قال النبي: إن جبرائيل كان معنا في البيت فقال: إن أمتك ستقتل هذا بأرض يقال لها كربلاء، فتناول من ترابها فأراه النبي فلما أحيط بالحسين حين قتل قال: ما اسم هذه الأرض؟ قالوا أرض كربلاء، قال: صدق رسول الله أرض كرب وبلاء.... (5).

()5 كنز العمال: 112/5.

اقول: وقد نقلت هذه الرواية الكثير من كتب أهل السنة بنفس العبارة أو بتعديل فيها، كصاحب العُقد الفريد في الجزء الثاني، وأحمد بن حنبل، وأبو يعلي، وابن سعد، والطبراني، وأنس بن مالك، وابن عساكر، وغيرهم كثيرون. ورواها أيضاً من الشيعة كثيرون من علمائهم منهم الشيخ أبو جعفر محمد بن علي المعروف بابن بابويه القمي عن الإمام محمد الباقر (عليه السلام).

ثم بكاه أمير المؤمنين (عليه السلام) لما علم من مصير الحسين ومقتله وأطفاله ومن سبي عياله. جاء في الصفحة ((50)) من كتاب ((إقناع اللائم)) للعلاّمة الأمين ما نصه:
((روى الصدوق في الأمالي بسنده عن ابن عباس قال: كنت مع أمير المؤمنين علي (عليه السلام) في خروجه الى صفين، فلما نزل نينوى وهي شط الفرات قال بأعلى صوته: يا ابن عباس أتعرف هذا الموضع؟ قلت: لا أعرفه يا أمير المؤمنين. فقال: لو عرفته كمعرفتي لم تكن تجوزه حتى تبكي كبكائي. قال: فبكى كثيراً حتى اخضلّت لحيته وسالت الدموع على صدره، وبكينا معه وهو يقول: آه، آه مالي ولآل أبي سفيان، صبراً يا أبا عبد الله، فقد لقي أبوك مثل الذي تلقى منهم..)) (6).

---

6 إقناع اللائم على إقامة المآتم: 65 للعلامة السيد محسن الأمين العاملي.

وبكاه أهل الحجاز وأبدوا بحقه أحرّ المشاعر ولعل أوضح صورة تجلت لإبداء المشاعر من لدن أهل الحجاز هو ما ظهر على محمد بن الحنفية وعبد الله بن عمر وغيرهم لمنعه من السفر الى العراق والرحيل إلى اليمن وامتناع الإمام (عليه السلام) عن ذلك.
وسمع عبد الله بن عمر بخروج الإمام من مكة فقدم راحلته وخرج خلفه مسرعاً فأدركه في بعض المنازل، فقال له: أين تريد يا ابن رسول الله؟ قال: العراق. قال: مهلاً ارجع إلى حرم جدك رسول الله فأبى الحسين فلما رأى ابن عمر إباءه فقال: يا أبا عبد الله أكشف لي عن الموضع الذي كان رسول الله يقبّله منك، فكشف الحسين (عليه السلام) عن سرته فقبلها ابن عمر ثلاثاً، وبكى، وقال: استودعك الله يا أبا عبد الله فإنك مقتول في وجهتك هذه ...
وأهل الكوفة وعلى الرغم من الجريمة التي ارتكبوها بحق الإمام الحسين (عليه السلام) فقد ارتفعت اصواتهم بالبكاء والنحيب بعد أن استمعوا لخطبة فاطمة بنت الإمام الحسين (عليهما السلام).
جاء في الصفحة (123) من كتاب (المجالس السنية) السابق الذكر بعد أن يذكر المؤلف تفصيل الخطبة التي ألقتها فاطمة الصغرى بنت الإمام الشهيد (عليهما السلام) على الكوفيين ما نصه:
(وقبيل انتهائها من الخطبة ارتفعت أصوات الكوفيين بالبكاء والنحيب وقالوا: حسبكِ يا ابنة الطيبين فقد أحرقت قلوبنا، وأنضجت نحورنا، وأضرمت أجوافنا، فسكتت...) (7).

7المجالس السنية: 123.

كما روى ابن طاووس الحسيني في كتابه (اللهوف في قتلى الطفوف):

(إنه لما جيء بسبايا أهل البيت إلى الكوفة جعل أهل الكوفة ينوحون ويبكون. قال بشر ابن خزيم الأسدي: ونظرت إلى زينب بنت علي (عليهما السلام) يومئذٍ فلم أرَ خفرة أنطق منها، كأنها تفرغ عن لسان أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد أومأت إلى الناس أن اسكتوا فارتدّت الأنفاس وسكنت الأجراس ثم قالت: الحمد لله، والصلاة على محمد وآله الطاهرين. أما بعد يا أهل الكوفة فلا رقأت الدمعة ولا قطعت الرنة...) (8).

إلى آخر الخطبة. ويستطرد ابن طاووس بعد نقل الخطبة كلها ويقول نقلاً عن بشر: (فوالله لقد رأيت الناس يؤمئذٍ حيارى يبكون، وقد وضعوا أيديهم في أفواههم. ورأيت شيخاً واقفاً إلى جنبي يبكي حتى اخضلت لحيته وهو يقول: بأبي أنتم وأمي، كهولكم خير الكهول، وشبابكم خير الشباب، ونساؤكم خير النساء ونسلكم خير النسل (9).

8اللهوف في قتلى الطفوف: ابن طاووس.
9نفس المصدر

وكذلك كان حال اهل الشام من النياحة والبكاء على الحسين (عليه السلام) ولم يكن أهل مدينة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهم يستقبلون بقية من رافق الحسين (عليه السلام) بأهون حال من بقية المناطق.
تقول الدكتورة بنت الشاطئ في كتابها (سكينة بنت الحسين) صحفة ((68)) عند الإشارة الى وصول السبايا إلى المدينة عام 61 هـ ما نصه: (وضجت المدينة بسكانها وهي تستقبل بقايا الركب الحسيني الذي ودعته منذ قليل. وبرزت النساء – كل النساء – صارخات باكيات، وخرجت عقيلات بني هاشم من خدورهن حاسرات الوجوه يندبن في لوعة: واحسيناه، واحسيناه. ولم تبق في المدينة دار إلا وبها مأتم ولبثت مناحة الشهداء هناك قائمة أياماً وليالي، حتى جفت المآقي من طول ما سكبت من دمع، وحتى ضحلت الحلق من طول ما اجهدها النواح(10).

---

(10) سكينة بنت الحسين: 68 د – بنت الشاطئ.

وتستطرد الدكتورة بنت الشاطئ فتقول: (وفي المدينة أقامت الرباب بنت امرئ القيس زوجة الحسين المأتم عليه، وبكت النساء معها حتى جفّت دموعها. ولما أعلمتها بعض جواريها بأن السويق يسيل الدمعة أمرت أن يصنع السويق، وقالت إنها تريد أن تقوى على البكاء، وقد خطبها بعد الحسين الأشراف، فأبت وقالت ما كنت لأتخذ حماً بعد رسول الله..
وهكذا بقيت الرباب سنة بعد الحسين لم يظلها سقف بيت حتى بليت وماتت(11).

---

(11) نفس المصدر.

أمّا الأئمة الأطهار فكان حزنهم بالغاً وبكاؤهم مستمراً في السرّ والعلن مع خاصتهم وعموم الناس. فزين العابدين عليه السلام ظلّ مدة الأربعين سنة التي عاشها بعد أبيه المظلوم باكياً حزيناً عليه، والإمام الباقر، والإمام الصادق والكاظم وباقي الإئمة الأطهار مضوا على هذه السنة.
قال السيد محسن الأمين العاملي في صفحة (93) من تأليفه (إقناع اللائم) عند بحثه عن نياحة الأئمة عليهم السلام على جدهم الشهيد ما نصه: (أما إنهم – أي الأئمة – بكوا على الحسين، وعدوا مصيبته أعظم المصائب وأمروا شيعتهم ومواليهم وأتباعهم بذلك، وحثوا عليه، واستنشدوا الشعر في رثائه، وبكوا عند سماعه، وجعلوا يوم قتله يوم حزن وبكاء، وذموا من اتخذه عيداً وأمروا بترك السعي فيه في الحوائج، وعدم ادخار شيء فيه، فالأخبار فيه مستفيضة عنهم، تكاد تبلغ حد التواتر رواها عنهم ثقات شيعتهم ومحبيهم بأسانيدها المتصلة إليهم..) (12).

---

(12) إقناع اللائم على إقامة المآتم: 93 السيد محسن الأمين العاملي.

سر القوة في إثارة المشاعر:

حين تتحول الأفكار إلى متبنيات لدى الإنسان وتكون جزءاً من شخصيته تصبح عنده عملية المساس بها مساساً بشخصيته والانتصار لها انتصاراً لشخصيته، وحين تكون هذه الأفكار مستوحاة من الرسالة يكون الانتصار للمشاعر والدفاع عنها انتصاراً ودفاعاً عن شخصيته الرسالية وتأكيداً لها، لا أن يكون ذلك تأكيداً لذاتيته وأنانيته. وبذلك يهتز الإنسان بكل مشاعره حتى ما مست رسالته وأهدافه وبذلك يتحول هذا الإحساس المرهف إلى رصيد رسالي يصون الرسالة ورجالها وأهدافها من كل عدو، هذا من جانب ومن جانب آخر إن لغة المشاعر يفهمها ويحياها الناس كافة بمختلف طوائفهم ومستوياتهم وبذلك تتوافر أهم ركيزتين أساسيتين لعملية بناء المشاعر بناء رسالياً من خلال تعميق الجانب النوعي من الإحساس والشعور وتكتيل الجانب الكمّي لذوي الإحساس، وهذا هو سر القوة في عملية إثارة المشاعر.
إن الالتزام بإحياء الشعائر الحسينية لدى الخاصة من المسلمين على مرّ الزمن حفظ الخط الإسلامي على الرغم من كل التحديات، وإن توسعة دائرة هذه الشعائر جعل من الوسط الاجتماعي عنصر ضغط في كثير من الأحيان على محاولات التحريف.
المواكب الحسينية مثلاً يتعامل معها العالم والطالب والكاسب ويظهرون معالم الحزن بالشكل الذي يختلط ذلك بشعورهم ويتحول ذلك إلى صمام إمان من الانحراف. فمواكب العزاء التي أنشئت على مختلف المستويات كمواكب الجامعة التي ضمت الآلاف من الطلاب، ومواكب العزاء التي تقيمها المناطق المختلفة بشتى العناوين؛ لتجعل الأمة في حالة تعبئة واعية لخدمة الإسلام وحين تكون هذه المراسم جزءاً من المشاعر يصعب معها على أعداء الإسلام تطويقها فضلاً عن إزالتها من وجدان الأمة. من هنا ترى أن المواكب الحسينية والمشاة الوافدين الى حرم الإمام

الحسين (عليه السلام) ومجالس العزاء ظلت عقبة كأداء أمام السلطة لأن أي محاولة للمساس بها هي مساس بمشاعر الناس.

التحديات التي تواجه المشاعر الحسينية:

الشعائر عموماً قد تتعرض الى نوع من أنواع السرقة من خلال انتحال المنخرطين في صف الحاملين للشعيرة صفة التعاطف وهم من موقع الضد، إذ لا يلتقون مع الحسين عليه السلام لا فكراً ولا عاطفة، كلّ ما في الأمر أنهم يحاولون أن يتحركوا على دائرة الموالين للإمام الحسين عليه السلام ومن ثم يحاولون أن يمرّروا شعاراتهم وأفكارهم على الناس، وقد شهدت الأمة وفي أكثر من مناسبة كيف تجرّأ البعض من المنحرفين على أن يركبوا موجة الولاء للحسين عليه السلام ويوجدوا لأنفسهم مكانة وصلت أحياناً إلى حجم السيطرة على موكب ضخم انخرط فيه آلاف الناس في مدينة كربلاء المقدسة. وقد وصل بهم التطاول إلى الدرجة التي كانت فيها الشعارات (الردّات) واضحة في تكريسها للاتجاه الكافر من أجل إبراز الموكب كمظاهرة سياسية موالية للحزب وتحمل شعاره وتتعاطف معه.
إن ظاهرة كهذه تعبّر عن غياب الوعي الإسلامي عن الأمة إلى الدرجة التي يسهل معها أن يوظف حزب كافر مثلاً هذه المشاعر الصالحة. وإلا فأي مبرر لأن يلتقي هذا الفكر الملحد مع فكر الإسلام وبأي مساحة تلتقي تلك الاحاسيس المنحرفة مع المشاعر الوطيدة، ولا يمكن أن تنفصم إلا عندما يغيب الوعي فتأخذ المشاعر اتجاهاً مخالفاً تماماً لطبيعة الأفكار التي تحملها. وهذا هو ما كان يحصل أحياناً في مناطق مختلفة من العالم الاسلامي. فقد عمد الملحدون أحياناً في بلد كالسودان على إقامة مجالس فاتحة على بعض موتاهم!... كما فسر ملحدون آخرون بعض الاحاديث الشريفة أو سيرة السلف الصالح لخدمة اتجاههم الكافر كمن تعامل مع ظاهرة أبي ذر (رضي الله عنه) على أنها مصداق للعدالة الاجتماعية التي ينشدها أولئك.
وصورة أخرى من صور التشويه التي تساعد عليها بعض الممارسات غير الاسلامية كالمحاولات التي بذلت من أجل أن تروّج عملية الدخول بالنار بدعوى أنها لا تحرق الموالين للإمام الحسين (عليه السلام) لولا تصدي الإمام الراحل السيد محسن الحكيم (طيب الله ثراه) لما تلحق هذه الممارسة من شبهة المجوسية بالمسلمين.
إن النظرة الى الشعيرة الإسلامية لابد من أن تخضع لميزان دقيق يتحرى الفكرة التي انبثقت منها، والهدف الذي تتوخاه فلا يكفي أن يكون الذي يحمل الشعيرة يتمتع بقصد حسن، فقد تمرّ بعض الأخطاء والانحرافات من خلال شريحة طيبة من المجتمع، لا تملك وعياً كافياً يعطيها القدرة على فرز الصواب من الخطأ، واعتماد ممارسة ما وطرحها على الأمة وبالشكل الذي تتفاعل معه قطاعات واسعة لابد من أن يخضع إلى ذوي الاختصاص من أهل العلم والفضل كي يقيّموا كل ممارسة على هدي الشريعة، ويثبتوا الصواب النافع، ويعالجوا الخطأ الضار. ولمّا كان للمشاعر مثل هذه الآثار الخطيرة فقد كان لابد للواعين من أن يقفوا وقفة واعية أمام مشاعر

أمتهم، ويمارسوا عملية التغيير فيما يتطلب التغيير، وإن عملية مثل هذه لا يمكن أن تتم إلا من خلال التفاعل الوجداني من قبل الواعين من هذه المشاعر الإسلامية المعبرة ولكي يتسنى لهم ومن هذا الموقع أن يبدوا التحفظ على الجانب الغريب عن طبيعة الاسلام.
إن ظاهرة المشاعر الغريبة التي لا يرتضيها الإسلام ربما تسببت بالإساءة إلى الاسلام على اكثر من صعيد فمرة تسيء بمظهرها العام لسمعة الإسلام، ومرة أخرى تترك ردود فعل سلبية قد تصل إلى حد التخلي عن فكرة الإسلام خصوصاً في وقت لم يكن للإسلام دولة، ولم يكن للإسلام ميادين أخرى ترسم معالم فكره، وشعائر تعبّر عن متبنياته، ولعل إجراء مراجعة لبعض أولئك الذين انخرطوا في بعض صفوف الانحراف كانوا قد اتخذوا من بعض المفارقات التي مُورست باسم الدين ذريعة لردود فعلهم، ولم تسقط تلك المفارقة في نظرهم كما لم تقف عند حدود سقوط الاشخاص الذين مارسوها بل تعدّتها الى سقوط الفكرة والمبدأ.

الأثر التربوي للمشاعر الحسينية:

إن لغة المشاعر: لغة يفهمها الكبار والصغار، الواعون والأقل وعياً على عكس الأفكار، فالشعائر يمكن أن تلتقي مع الطفل في مرحلته الأولى، كما لا تحظى بفهم الناس إلا أن تكون على قدر مستوياتهم وعليه فقد كانت دائرة الفكر أخص من دائرة المشاعر هذا من جانب ومن جانب آخر فإن ترويج المشاعر والشعائر الحسينية بشكل خاص ينمي عند الناشئة حالة من الإحساس المعمق بضرورة نصرة المظلوم والتضحية من أجل ذلك، إضافة إلى ما لهذه الشعائر من أثر بالغ في تعميق العلاقة بين الناشئة والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته (عليهم السلام) خصوصاً إن أجلى صورة تجسدها ثورة الامام الحسين هي الفداء من أجل الإسلام بالنفس والأهل والأصحاب، وأي نفس كنفس الحسين وأي أهل وأصحاب كأهله وأصحابه، من هنا أدرك المعادون لأهل البيت خطورة هذه الشعائر فعمدوا إلى محاربتهم بكل طريقة، وطمس معالم المراقد المقدسة في عدة محاولات.
فقد قال السيد محمد بن أبي طالب الحسيني الحائري فيما حكي عن كتابه تسلية المجالس وزينة المجالس: وكان قد بني عليه مسجد، ولم يزل كذلك بعد بني أمية وفي زمن بني العباس إلا على زمن هارون الرشيد فإنه خرّبه وقطع السدرة التي كانت ثابتة عنده وكرب موضع القبر)) (13).

13عيان الشيعة: 2/ 627.

ثم هدم المتوكل قبر الإمام الحسين عليه السلام جاء في تاريخ الطبري: ((في سنة 236، أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره، وأن يمنع الناس من إتيانه فذكر أن عامل

صاحب الشرطة نادى في الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به الى المطبق فهرب الناس، وامتنعوا من المصير إليه وحرث ذلك الموضع وزرع ما حواليه... (14).

---

(14) تاريخ الأمم والملوك للطبري، طبعة مؤسسة الأعلمي – بيروت: 365/7.

لم تكن هذه الممارسات التخريبية تستهدف البناء لو لم يضع أصحابها في حسابهم خطورة هذه الشعائر في تعميق خط الإسلام الصحيح.

الأثر السياسي للمشاعر الحسينية:

بعد أن مثلت المشاعر والأحاسيس الحسينية الوجه العاطفي لما انطوت عليه من وعي لخلفية الثورة وفهم لأهدافها، فإن المشاعر الحسينية والحالة هذه اصبحت مرتبطة بخط سياسي تغييري جدده الإمام الحسين (عليه السلام) في واقعة كربلاء.
((إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر....)).
من هنا ارتبطت المشاعر الحسينية بأهداف الحسين الإسلامية: الإصلاح في أمة الإسلام، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنها حددت الهدف الكبير وهو الإصلاح في أمة الإسلام وحددت الآلية في عملية التغيير من خلال فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذلك أصبح الشعار الحسيني هتافاً ضد الظلم وأصبح الزخم الحسيني بالحركة تياراً ضد الطواغيت فحين يتعمق الإحساس الحسيني في النفوس وحين يتعبأ أبناء الأمة بهذا الإحساس وحين يواجهون من موقع الوعي والتعبئة قوة من قوى الظلم يتولى هذا التيار الجماهيري عملية جرف الانحراف وبهاتين الركيزتين ((الوعي)) و((التضحية)) إن تعرف الحق وتقوى على الانتصار له والتضحية من أجله. إنه وعي للأهداف، وعي للعدو، وعي للمسؤولية، وتضحية على مستوى المال والجاه والنفس بكل غالٍ ونفيس.... بهاتين الركيزتين ينطلق الحسينيون لإحياء الشعائر ويتحولون إلى طرف نشيط يعي الإسلام ويعمل لتطبيقه ويضحي من أجله.

دور الحوراء زينب (عليها السلام) في إثارة المشاعر:

لم يكن موقف الحوراء زينب (عليها السلام) في نصرة الإمام الحسين (عليه السلام) منبعثاً من كونها أخت الامام الحسين، فتحركت لتأكيد هذه العلاقة العائلية، أنها انطلقت أحساساً منها بمسؤوليتها تجاه الحسين الإمام والقائد لتكون أنموذجاً للآخرين فيما ينبغي أن يتعاملوا مع الإمام الحسين فهي عليها السلام ومن موقع المشاركة الميدانية الرائعة، وموقفها الرسالي الفذ أثارت المشاعر وهزت الضمائر وأظهرت بشاعة الصورة الإجرامية التي ارتكبها بنو أميّة بحق الحسين (عليه السلام) وأهله

وأطفاله وأصحابه، تقول الدكتورة بنت الشاطئ: (وكانت السيدة زينب هي التي جعلت من مصرع الحسين مأساة خالدة لا نعرف ما هو أبعد أثراً في تطور العقيدة عند الشيعة(15)، وصيّرت من يوم مقتله مأتماً سنوياً للأحزان والآلام.

---

(15) تعتقد الكاتبة أن العقيدة الشيعية تتطور، وهي خاضعة للظروف وهذا هو تصور بعض المتعلمين ممن لا يريدون النظر للتشيع كقضية مشهودة في السيرة النبوية الشريفة، ومستمدة من السنة المحمدية المطهرة، فهم غافلون أو متغافلون..

وكانت زينب هي التي صيرت من ليلة العاشر من المحرم مأتماً سنوياً للأحزان والآلام يحجّ فيه احفاد التوابين إلى المشهد المقدس في كربلاء، حيث يعيدون تمثيل المأساة، ويفرضون على أنفسهم أقسى أنواع العذاب الجسدي، تكفيراً عن خطيئة آبائهم وأجدادهم الذين قتلوا الحسين وآله وصحبه، وبقي شعار التوابين إلى أن انقرضوا)) على حد تعبير الكاتبة(16)

---

(16) التوابون ليسوا مذهباً معيناً حتى يقال إنهم ((انقرضوا)) أو لهم طقوس معينة تفرض ((اقسى أنواع العذاب الجسدي تكفيراً عن خطيئة آبائهم...إلخ)) فكان على الكاتبة أن تؤيد كلامها بمصادر تأريخية موثوقة.... إن التوابين هم أصحاب حركة ثورية مسلحة قامت ضد الأمويين طلباً بدم الإمام الحسين (عليه السلام)، وقتلوا في واقعة ((عين الوردة)) لا كما توحي الفقرة المرتجلة السابقة.. انظر تاريخ الطبري: 426/4، وما بعدها وغيره من التواريخ الشهيرة..

وتستطرد هذه الدكتورة فتقول:
(وما أحسب أن التاريخ قد عرف حزناً كهذا طال مداه حتى استمر بضعة عشر قرناً من دون أن يفتر فمراثي شهداء كربلاء هي الأناشيد التي يترنم بها الشيعة (17)في حزنهم يوم عاشوراء في كل عام، ويتحدون الزمن أن يغيبها في متاهة النسيان).
(وكذلك كانت زينب عقيلة بني هاشم في تاريخ الإسلام وتاريخ الإنسانية بطلة استطاعت أن تثأر لأخيها الشهيد، وأن تسلط معاول الهدم على دولة بني أمية، وأن تغيّر مجرى التاريخ...)(18)

17سكينة بنت الحسين، بقلم بنت الشاطئ.
18نفس المصدر

ان الموقف الزينبي هذا بما ينطوي عليه من وعي رسالي وبطولة منقطعة النظير يجعل المرأة المسلمة أمام مسؤولية كبيرة في حمل لواء الإسلام علماً وعملاً وجهاداً في سبيل الله.
لم تكن ظاهرة الصحوة الإسلامية التي عمت أوساط النساء في عالمنا الاسلامي إلا مصداقاً لهذه الحالة ((الزينبية)) وهي واحدة من ثمار المشاعر الحسينية التي بدأت تنفتح على الأمة في افقها الإسلامي الرحب من دون أن تتحدد في إطار طائفي أو قومي أو إقليمي.
وفي الختام إننا لا نجد ما يبرر حالة من العزوف أو الغياب في الأوساط الحسينية المفعمة بالمشاعر الصادقة والمعبرة عن عمق مأساة الحسين (عليه السلام) من قبل البعض، فإن التواجد في أجواء البكاء وإحياء الشعائر أمر طبيعي مكمّل لشخصية المؤمن ذلك لأن الله تعالى الذي أوجد في الإنسان الدمع تكوينياً لابد من أن يكون قد أوجد له مبرراً موضوعياً والشخصية مثلما لها بالتكوين جانباً من الفرح والسرور يبرز في موضوع ما من موضوعات الحياة، كذلك هناك جانب الحزن والأسى والألم يتطلب أن يظهر في الموضوعات التي تقتضيه، وإلا فإن الإنسان يفقد إنسانيته ويفقد إحساسه ومشاعره حيث لا يتفاعل بلغة المشاعر مع ما يتطلبه المقام.

وليس من الصحيح على الإطلاق أن تعتبر حالة البكاء على أنها مصداق للانكسار والضعف.
إنها عملية سوية وتعبير عن نفس متكاملة تعي مظلومية وتتحسس لعميق المأساة فتنساب معها بأنقى المشاعر وتجدد في النفس عزمها على مواجهة قوى الشر والانتصار للخير وهذا هو بعض ما يعطيه مسرح كربلاء في ملحمة الفداء الحسيني.